اسم المادة الدراسية : الأدب العباسي (الشعر).

اسم المادة باللغة الانكليزية : Abbasid Literature of poetry

(المحاضرة الخامسة)

عنوان المحاضرة : التجديد في البنى الفنية .

التدريسي ولقبه العلمي : أ.د. محمد عويد محمد الساير

المرحلة الدراسية : الثالثة

المحاضرة ٥

التجديد فى الأوزان والقوافى

سبق أن تحدثنا فى كتاب «العصر الإسلامى» عن مدى ما أثّر به الغناء المستحدث حينذاك فى موسيقى الشعر وألحانه، إذ ساد فيه نظم المقطوعات القصيرة فى الغزل وأخذ الشعراء يصفّون موسيقاهم حتى غدت بعض تلك المقطوعات أنغاما خالصة: نغمة حلوة بجانب نغمة حلوة. وقد مضى شعراء الغزل يعدلون غالبا عن النظم فى الأوزان الطويلة المعقدة إلى النظم فى الأوزان الخفيفة البسيطة، فإن ألموا بالأوزان الأولى جزّءوها غالبا حتى تحمل ما يريد المغنون والمغنيات من أنغام مجهورة أو مهموسة، ومن أجل ذلك أكثروا فيها من الخروق أو بعبارة أخرى من الزحافات، إكثارا نفذ منه الوليد بن يزيد إلى استكشاف وزن المجتث وصنع بعض المقطوعات فيه.

وانتقلت موجة هذا الغناء فى أواخر العصر الأموى إلى الكوفة، حتى إذا كان العصر العباسى الأول بلغت فى مدن العراق كلّ ما كان ينتظر لها من حدة وقوة، فمن جهة صفيّت لغة الشعر وبلغت كل ما يمكن من رشاقة وعذوبة ونعومة على نحو ما مرّ بنا فى أوائل هذا الفصل، ومن جهة ثانية اتسعت الملاءمات الموسيقية العروضية مع الغناء، فإذا القصيدة الطويلة تكاد تختص بالشعر الرسمى: شعر المديح والرثاء، بينما تشيع المقطّعات فى الغزل والهجاء والمجون والزهد والحكم. ومضى الشعراء ينظمون–على هدى الشعراء الأمويين–فى الأوزان الخفيفة والمجزوءة وفى وزن المجتث الذى اقترحه الوليد بن يزيد، ومن خير من يمثّل ذلك مطيع بن إياس الكوفى

فإننا حين نتصفح الشعر المبثوث فى ترجمته بكتاب الأغانى نجد كثرته من مجزوءات الخفيف والبسيط والرجز والكامل والرمل أو من الهزج أو من المجتث على شاكلة قوله (١):

ويلى ممّن جفانى ...وحبّه ند برانى

وطيفه يلقانى ...وشخصه غير دانى

أغرّ كالبدر تعشى ...بحسنه العينان

ولم يلبث الشاعر العباسى أن حاول النفوذ إلى أوزان جديدة، وإذا هو يكتشف وزنين سجلهما الخليل بن أحمد حين وضع نظرية العروض، وهما وزنا **المضارع والمقتضب**، أما المضارع فأجزاؤه مفاعيلن فاعلاتن مفاعيلن، ودائما تحذف فيه التفعيلة الأخيرة، ومنه مقطوعة أبى العتاهية (١):

أبا عتب ما يضرّ ...ك أن تطلقى صفادى (٢)

وأما المقتضب فأجزاؤه مفعولات مستفعلن مستفعلن، وتحذف منه التفعيلة الأخيرة أيضا، كما يلقانا عند أبى نواس فى مقطوعته (٣):

حامل الهوى تعب ...يستخفّه الطّرب

إن بكى يحقّ له ...ليس ما به لعب

وواضح أن هذا الوزن أكمل نغما وإيقاعا من سابقه، ولعل ذلك هو الذى جعله يشيع ويتداوله الشعراء، بينما كادوا يهملون المضارع. واكتشف الشاعر لعباسى أيضا وزن المتدارك أو الخبب، ويقال إن الخليل لم يسجله فى عروضه، إنما سجله تلميذه الأخفش (٤)، ولكنه إن كان لم يقترح له اسما فإنه عرفه ونظم منه أشعارا مختلفة (٥)، من مثل:

أبكيت على طلل طربا ...فشجاك وأحزنك الطّلل

ومثل:

ليس المرء الحامى أنفا ...مثل المرء الضّيم الراضى (٦)

ونرى الفرس حين يعودون إلى لغتهم ويحدثون نهضتهم الأدبية يستخدمون هذا الضرب من الشعر فى قصصهم متخذين له اسما جديدا هو «المثنوى». ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه هو الذى رشح لظهور الرباعيات فى الأدبين العربى والفارسى، وهى تتألف من أربعة شطور، تتفق أولها

وثانيها ورابعها فى قافية واحدة، أما الشطر الثالث فقد يتخذ نفس القافية وقد لا يتخذها، من مثل قول بشار مازحا مع جاريته ربابة (٧):

ربابة ربّة البيت ...تصبّ الخلّ فى الزّيت

لها عشر دجاجات ...وديك حسن الصّوت

ويروى أن حماد عجرد صاغ من هذا النمط الرباعى أشعارا مزاوجة كان يقرأ بها الزنادقة من أمثاله فى صلاتهم (٨)، ومما يروى من رباعياته غير الدينية قوله

يهجو غيلان جد عبد الصمد بن المعذّل، وكان على أعشار البصرة وظهرت منه خيانة (١):

ظهر الأمير عليك يا غيلان ...إذ خنته إن الأمير معان

أمع الدمامة قد جمعت خيانة ...قبح الدميم الفاجر الخوّان

الرباعيات :

وتكثر الرباعيات فى ديوان أبى نواس وخاصة فى الخمريات والغزل ، ونستبعد أن تكون مقتطعة من مطالع قصائد له ضاعت، لكثرتها عنده، ومن أمثلتها الطريفة قوله:

أدر الكأس وأعجل من حبس ...واسقنا ما لاح نجم فى الغلس

قهوة كرخية مشمولة ...تنفض الوحشة عنا بالأنس

ومن يرجع إلى تراجم الشعراء فى الأغانى يجد منها أمثلة كثيرة، وممن كان يكثر منها–فيما يظهر–أبو العتاهية سواء فى الغزل أو فى الزهد، من مثل قوله فى الموت الدائر على جميع الناس (٦):

الموت بين الخلق مشترك ...لا سوقة يبقى ولا ملك

ما ضرّ أصحاب القليل وما ...أغنى عن الأملاك ما ملكوا

المسمطات:

والمسمّطات قصائد تتألف من أدوار، وكل دور يتركب من أربعة شطور أو أكثر، وتتفق شطور كل دور فى قافية واحدة ما عدا الشطر الأخير فإنه يستقل بقافية مغايرة، وفى الوقت نفسه يتحد فيها مع الشطور الأخيرة فى الأدوار المختلفة، ومن أجل ذلك يسمى عمود المسمط فهو قطبه الذى يدور عليه وإنما سمّى مسمطا من السمط وهو قلادة تنظم فيها عدة سلوك تجتمع عند لؤلؤة أو جوهرة كبيرة، وكذلك كل دور فى المسمط يجتمع مع الأدوار الأخرى فى قافية الشطر

الأخير. ومن أمثلة المسمط المربع خمرية لأبى نواس تتوالى على هذا النمط (١):

سلاف دنّ ...كشمس دجن

كدمع جفن ...كخمر عدن

طبيخ شمس ...كلون ورس

ربيب فرس ...حليف سجن

يا من لحانى ...على زمانى

اللهو شانى ...فلا تلمنى

وواضح أنه بى شطورها على تفعيلة واحدة. وكان شيوع المسمطات الخمسة أوسع من شيوع أختها المربعة، واشتهر بشار بنظمه لبعض المخمسات ، ويقول الجاحظ إنه لم يكن أحد أقوى على صنع المخمسات من بشر بن المعتمر ، وقد أنشد الدميرى لأبى نواس مخمسا ختمه بهذا الدور:

يا ليلة قضيتها حلوه ...مرتشفا من ريقها قهوه

تسكر من قد يبتغى سكره ...ظننتها من طيبها لحظه

يا ليت لا كان لها آخر

وقد اختار لآخر المخمس–كما هو واضح–صيغة يبدو من تركيبها أنها عامية، وكأنه هو الذى ألهم الوشاحين الأندلسين أن يختموا بعض موشحاتهم بأقفال عامية. ونفس الموشحات نجد صورة تقترب منها اقترابا شديدا سواء من حيث الأدوار والمراكز أو الأقفال، إذ ينسب لديك الجن صنعه لمنظومة على هذا النحو (٧):

قولى لطيفك ينثنى ...عن مضجعى عند المنام

المصادر والمراجع:

- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول : د. شوقي ضيف ، دار المعارف – الاسكندرية ، ١٩٨٦.
- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الثاني : د. شوقي ضيف ، دار المعارف – الاسكندرية ، ١٩٨٦.

- الادب العربي في العصر العباسي : د. ناظم رشيد ، دار الكتب الوطنية – العراق ، ١٩٩٠.
- تاريخ الادب العربي : كارل بروكلمان ، نقله الى العربية : عبد الحليم النجار ، دار المعارف – الاسكندرية ، (د.ت.)
- تاريخ الأدب العربي : د.عمر فروخ ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط٤ ، ١٩٨١.
- ديوان الشاعر المتنبي .
- ديوان الشاعر ابي تمام .
- ديوان الشاعر البحتري .
- ديوان الشاعر ابي نواس .
- ديوان الشاعر العباس بن الاحنف .
- ديوان الشاعر الشريف الرضي .
- ديوان الشاعر بشار بن برد .
- ديوان الشاعر ابن الرومي .